سياسة المغرب الإفريقية
حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات التدخل الإسباني
خلال القرن الخامس عشر الميلادي

د. العربي بنرمضان
باحث في التاريخ الوسيط والحديث
دكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية
فاس – المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة دكتوراه تاريخ وسيط وحديث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس، فاس
جامعة سيدي محمد بن عبد الله

الباحث: العربي بنرمضان
إشراف: أ.د. ماجدة كريمي
٢٨٢ صفحة - المغرب ٢٠١٣

كلمات مفتاحية:
العصر الوسيط، بلاد السودان الغربي، المجال الصحراوي، الدراسات الإفريقية، الاستعمار الإسباني

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.12816/0052964 DOI

ملخص

تعالج الأطروحة الموسومة بـ "سياسة المغرب الإفريقية: حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات التدخل الإسباني خلال ق١٥م" والتي يصل عدد صفحاتها ٢٨٢ صفحة، العلاقات المغربية الإفريقية ومدى تطورها عبر الزمن خاصة خلال العصرين الوسيط والحديث، حيث لعب المغرب دور الوسيط التجاري بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، ومن تم نشطت باقي أوجه العلاقات بين المغرب وعمقه الإفريقي. كما تعالج هذه المساهمة البحثية في إبراز الاهتمام الكبير للأسر التي تعاقبت على حكم المغرب برعاية وتنمية التجارة الصحراوية في ظل ظروف سياسية جد متميزة مع دول إفريقيا جنوب الصحراء، بل وحرص المغرب طيلة فتراته التاريخية على الحضور الفاعل والمتميز بالمجال الجنوب الإفريقي، وأضحى مصدر كل التطورات التي تعرفها إفريقيا جنوب الصحراء، فمنه وعبره كان يتم نقل كل المقومات الحضارية نحو هذه الأخيرة.

كما ركزت هذه الأطروحة من حيث الزمن على الفترة الوسيطية باعتبارها الوعاء الزمني الذي ترجم بامتياز الحضور الفاعل للمغرب في إفريقيا جنوب الصحراء، والفترة الحديثة التي تزامنت مع حكم الأسرة السعدية التي ضمت بلاد السنغاي سنة ١٥٩١م على عهد أحمد المنصور السعدي، والتي شكلت انعكاسا لمجموعة من المتغيرات الدولية بالبحر الأبيض المتوسط بظهور قوى سياسية جديدة في الشمال كإسبانيا والبرتغال والإمبراطورية العثمانية المتوثبة بالشرق، وبرغبة دفينة للأسرة السعدية لإعادة أمجاد بعض دول المغرب الوسيط التي امتدت حتى حدود نهر السنغال. كما لفتت هذه الأطروحة الانتباه إلى أن التراكم التاريخي الذي راكمه المغرب في علاقته بإفريقيا جنوب الصحراء، عرف انكماشًا خطيرًا بعد اكتشاف السواحل الغربية الإفريقية من طرف بعض القوى الأوربية التي تمكنت من الوصول عبر السواحل الأطلسية وتجاوز الوساطة المغربية، فتضررت العلاقات التجارية وتراجع الحضور السياسي المغربي بإفريقيا جنوب الصحراء. ومن ثَمَّ أصبحت الحاجة ملحة لإحياء الدور المغربي في إفريقيا بإحياء إرثه التاريخي داخل القارة السمراء، وبإماطة اللثام عن مدى قوة حضور إفريقيا جنوب الصحراء في علاقاته الدولية، خاصة ونحن في ظل عالم متغير يفرض اتخاذ قرارات استراتيجية تمليها النزعة الدولية نحو التكتلات الإقليمية والجهوية.

مُقَدِّمَةٌ

إن المتتبع للعلاقات المغربية الإفريقية يلمس الازدهار والتطور الكبيرين الذين شهدتهما هذه العلاقات لفترات تاريخية طويلة، فقد لعب المغرب دور الوسيط التجاري بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، ومن تم نشطت باقي أوجه

العلاقات بين المغرب وعمقه الإفريقي. فعلاً لقد اهتمت الدول التي تعاقبت على حكم المغرب بشكل كبير برعاية وتنمية التجارة الصحراوية في ظل ظروف سياسية جد متميزة مع دول إفريقيا جنوب الصحراء، بل وحرص المغرب طيلة فتراته التاريخية على الحضور الفاعل والمتميز بالمجال الجنوب الإفريقي، وأضحى مصدر كل التطورات التي تعرفها إفريقيا جنوب الصحراء، فمنه وعبره كان يتم نقل كل المقومات الحضارية نحو هذه الأخيرة.

وإذا كان العصر الوسيط الوعاء الزمني الذي ترجم بامتياز الحضور المغربي الفاعل بإفريقيا جنوب الصحراء، فقد توج ذلك على يد الدولة السعدية التي ضمت دولة السنغاي سنة ١٥٩١م على عهد أحمد المنصور السعدي لدواعي مختلفة، يدخل ضمنها رد فعل الدولة السعدية اتجاه المتغيرات الدولية بالبحر الأبيض المتوسط المرتبطة بظهور قوى سياسية جديدة في الشمال والشرق من جهة، ومن جهة ثانية في إطار رغبة الأسرة السعدية في إعادة أمجاد بعض دول المغرب الوسيط التي امتدت إلى حدود نهر السنغال. غير أن هذا التراكم التاريخي عرف انكماشًا خطيرًا بعد اكتشاف السواحل الغربية الإفريقية من طرف بعض القوى الأوربية التي تمكنت من الوصول عبر السواحل الأطلسية وتجاوز الوساطة المغربية، فتضررت العلاقات التجارية وتراجع الحضور السياسي المغربي بإفريقيا جنوب الصحراء. واليوم أكثر من أي وقت مضى تبدو الحاجة ملحة لإحياء الدور المغربي في إفريقيا بإحياء إرثه التاريخي داخل القارة السمراء، وبإماطة اللثام عن مدى قوة حضور إفريقيا جنوب الصحراء في علاقاته الدولية، خاصة ونحن في ظل عالم متغير يفرض اتخاذ قرارات استراتيجية تمليها النزعة الدولية نحو التكتلات الإقليمية والجهوية.

وعليه فاختيارنا البحث في موضوع: "سياسة المغرب الإفريقية: حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات التدخل الإسباني خلال القرن الخامس عشر الميلادي" يندرج ضمن الدراسات الإفريقية التي تشكل إحدى الحقول المعرفية الهامة. والحق أن هذا الحقل المعرفي حضي باهتمام متزايد من طرف العديد من الباحثين من مختلف الأجناس والمشارب، فجاءت الكتابات التاريخية متنوعة ومتباينة فيما بينها تبعا لاختلاف الرؤى والمناهج، الأمر الذي يدفعنا لطرح تساؤلات تبتغي تثمين بعض ما ورد بها وتطمح إلى تعميق النقاش بخصوصها، فنقول:

- ما نسبة حضور تاريخ المغرب بشكل عام وتاريخ العلاقات المغربية الإفريقية ضمن هذه الدراسات؟
- ماهي الخطابات التاريخية التي تقاسمت هذا المنتوج المعرفي؟
- ما هي خصوصيات ومنطلقات ومواضيع كل خطاب من هذه الخطابات؟

نسلم جميعًا بأن تاريخ المغرب في علاقته بإفريقيا جنوب الصحراء تجاذبته العديد من الخطابات، وذلك بمختلف الحقب التاريخية سواء منها الحقبة القديمة أو الوسيطة أو الحديثة أو المعاصرة، مع الإشارة إلى أن التاريخ القديم لهذه العلاقات لم يحض بنفس الاهتمام الذي حضي به التاريخ الحديث والمعاصر. ونظرا لاختلاف المناهج والمنطلقات يمكن القول، أن هذه الخطابات قد أخذت منها الكتابات الأجنبية: أمريكية – فرنسية – إسبانية حصة هامة وانقسمت إلى شطرين: أولهما تعرض لانتقادات كثيرة، إلا أنه لا يمكن إغفال الدور الكبير الذي لعبته هذه الكتابات في التعريف بهذه العلاقات نظرا للتراكم المعرفي الذي حصل لأصحابها حول تاريخ الغرب الإفريقي، وشطر ثاني تناول تاريخ هذه العلاقات بموضوعية علمية رصينة فباتت مرجعًا أساسيًا لا يمكن تجاوزه من طرف الباحثين المحدثين[١].

ونستحضر هنا البعض منها وفق الفترات التاريخية المدروسة فهذا: كورنفان (cornevin) الذي كتب "**تاريخ إفريقيا من الجذور إلى الحرب العالمية الثانية**"، ودافدسون(Davidson) "**إفريقيا القديمة**"، ودولاشبيل (De lachapelle) "**لمحة تاريخية حول الصحراء الغربية**"[٢]. أما في العصور الوسطى فيمكن القول أن هذا النوع من الكتابات أصبح أكثر غزارة نذكر منها كتابات: جوزيف كيوك(Joseph Cuoq) "**تاريخ أسلمة إفريقيا الغربية من الجذور إلى نهاية ق١٦م**"[٣]، ورايموند موني (Rymond Mauny)"**اللوحة الجغرافية للغرب الإفريقي في العصر الوسيط**"[٤]، وفانسون مونتاي (Vincent Monteil)"**الإسلام الأسود كدين لغزو إفريقيا**"[٥]، وجاك مونيي (Jaques Meunié) "**المغرب الصحراوي من الجذور إلى سنة ١٦٧٠**"[٦].

والشيء نفسه ينسحب على الكتابات الأجنبية حول العلاقات المغربية الإفريقية في العصر الحديث، ولا نجد أفضل مما كتب حول هذه الفترة ما قدمه ميشيل أبيتبول (Michel Abitbol) في كتابه المشهور عن العلاقات المغربية الإفريقية خلال العصر الحديث والمعنون بـ: "**تومبوكتو ومجتمع الرماة من الغزو المغربي للسودان سنة ١٥٩١م إلى إمبراطورية ماسينا سنة ١٨٣٣**"[٧]. يضم هذا الكتاب الذي طبع بباريس سنة ١٩٧٩م ٢٩٥ صفحة من الحجم المتوسط و٥٠ صفحة للهوامش مقسم إلى أربعة أقسام أساسية، الباب الأول يعالج غزو السودان من طرف السلطة السعدية أسبابه ونتائجه العامة، كما يعالج تطور مؤسسة الباشوية إلى أواسط القرن السابع عشر الميلادي في الباب الثاني، أما الباب الثالث فتطرق فيه للحياة الاجتماعية والاقتصادية للباشوية في حين خصص الباب الرابع لانهيار الباشوية منذ وفاة المولى إسماعيل. تكمن أهمية هذا الكتاب في كونه يكشف النقاب عن التاريخ القديم لشعوب البول والتكرور

حيث ساهم في إعادة الاعتبار للهوية الجماعية لشعوب النيجر الأعلى التي فقدتها خلال السيطرة الاستعمارية، كما تكمن أهميته في اعتماده دراسات عديدة ومتنوعة خاصة مصادر التاريخ السوداني والمصادر المغربية مثل "مناهل الصفا" للفشتالي و"نزهة الحادي" للوفراني و"الترجمان المعرب" للزياني و"الإستقصا" للناصري وكذا مراجع حديثة مثل "رسائل سعدية" لعبد الله كنون وما كتبه المختار السوسي في "خلال جزولة" و"إيليغ قديمًا وحديثًا" ومراجع أخرى أوربية.

أما بخصوص الخطاب التاريخي الجنوب إفريقي: ويتعلق الأمر هنا بكتابات تاريخية وطنية خرجت إلى الوجود بعد موجة الاستقلالات التي عرفتها القارة السمراء خلال مرحلة الستينيات من ق٢٠م، ونسجل أنها قد حاولت أن تجعل لنفسها موطئ قدم لها بين الكتابات الأجنبية وأن تنتزع الاعتراف من جديد بالتاريخ الأصلي والحقيقي للقارة الإفريقية، وإن ظلت حبيسة التوجهات التي حكمت بعض الكتابات الأجنبية. هي كتابات لا بأس بها على المستوى الكمي، نذكر على سبيل الإستئناس لا الحصر: زكاري دراماني ايسيفو(Zakari Dramani Issifou) "**إفريقيا السوداء في العلاقات الدولية خلال ق١٦م، تحليل للأزمة بين المغرب والسنغاي**"[٨]، وآدم با كوناري (Adam Ba Konaré) "**العلاقات السياسية والثقافية بين المغرب ومالي عبر العصور**"[٩]، وكي زيربو(Ki-Zerbo) "**تاريخ إفريقيا السمراء**"[١٠]، وسكيني مودي سيسكو(S.M.Cissoco) "**تاريخ إفريقيا الغربية**"[١١]....

لكن على المستوى النوعي، يعتبر ما كتبه" دراماني اسيفو" من أهم ما كتب حول هذه العلاقات خلال الفترة الحديثة، فقد تطرق إلى الدوافع الأساسية لاحتلال السنغاي من طرف الدولة السعدية في مقدمتها مسألة البيعة التي ارتبطت بشكل أساسي بمسألة الخلافة والتي تدخل في إطار الصراع السياسي المغربي العثماني بمنطقة شمال إفريقيا. هذا وقد أوضح أنه كان للأزمة المالية التي عرفها المغرب في عهد الدولة السعدية دورًا كبيرًا في الحملة العسكرية على بلاد السنغاي إلى جانب الحلول الإجرائية الأخرى التي لجأ إليها أحمد المنصور، كما تعرضت هذه الدراسة إلى دور المالح في تأزم العلاقات المغربية السنغية.

إضافة إلى هذه الدراسة الهامة هناك دراسات أخرى تناولت العلاقات بين ضفتي الصحراء، ونقصد هنا دراسة فليكس إيروكو(Félix Iroko) المعنونة ب "**السياسة المغربية ببلاد السودان خلال القرنين ١٦و١٧م**"، والتي أشار فيها إلى التلاقح الحضاري الهام الذي تم بين ضفتي الصحراء والمتمثل في انتقال العديد من العادات والتقاليد إلى بلاد السودان الغربي، ناهيك عما شكلته بلاد السودان كمجال مزود للمغرب بمواد إنتاجية مختلفة كالذهب والملح والرقيق الذي شكل أحد العناصر الأساسية المكونة للقوة العسكرية للدولة العلوية خلال القرن السابع عشر الميلادي[١٢].

أما باقي الكتابات فتميزت بالإجحاف الكبير في حق المغرب، حيث ذهب أصحابها إلى أن الحملة السعدية على السودان هي المسؤولة على جميع ويلات هذه المنطقة إذ دمرت الحضارة المزدهرة بها، كما أوقفت نهضة كبيرة خلال حكم آل أسكيا، لذا اعتبرت المد المغربي على السودان بمثابة الصدمة التي أذهلت هذا البلد كله، وجرت عليه كل الأزمات التي هزت كيانه وحالت دون إقلاعه، ومنعته من مسايرة تحولات عصره. فإذا كانت في نظر سيسوكو كارثة عظيمة حلت ببلاد السودان فقد وصفها كي زيربو بالوحشية والنهب والسلب وإتلاف الثروات، الشيء الذي تسبب في سقوط البلاد في سلسلة من الأزمات الاقتصادية أعقبتها أوبئة ومجاعات دمرت البلاد.

وأخيرًا نصل إلى الخطاب التاريخي المغربي: ونقصد به الكم المعرفي الذي كتب حول تاريخ علاقات المغرب بإفريقيا جنوب الصحراء بأقلام مغربية والتي انصب اهتمامها على تتبع مسار هذه العلاقات عبر العصور، وإن لم تحض الفترة القديمة منها باهتمام كبير، إذ لم نعثر على دراسة متخصصة في هذا المجال مقارنة مع العصرين الوسيط والحديث اللذين حظيا بالنصيب الأوفر من هذه الدراسات، حيث تطرقت لمختلف الروابط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الطرفين، وذلك إما على شكل أطروحات أو رسائل أو مقالات[١٣]. وهنا نسجل أنه لم تقف هذه المحاولات الجادة عند دراسة العلاقات بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء بل تعدتها إلى التطرق لتاريخ السودان الغربي نفسه والتي همت جوانب مختلفة كالمجتمع والسياسة والثقافة[١٤].

وفي هذا الباب لا تفوتنا الإشارة إلى أنه على المستوى الرسمي شكلت فترة الثمانينيات من القرن العشرين منعطفا هاما في تاريخ البحث في هذه العلاقات، ويظهر ذلك من خلال إحداث مؤسسة مهمة للدراسات الإفريقية، إضافة إلى إدراج تخصصات في مجال البحث التاريخي حول جوانب التواصل بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء ببعض المؤسسات الجامعية[١٥]. كل هذه المجهودات سواء على المستوى المؤسساتي أو الجامعي، كان الهدف منها تطوير البحث العلمي في هذا المجال والاهتمام بالتراث المغربي-الإفريقي المشترك. وفي هذا الإطار لا بأس من ذكر بعض الإنتاجات العلمية حول هذا التاريخ المشترك والتي جاءت متنوعة إما على شكل دراسات أو تحقيقات لبعض المخطوطات[١٦]، أو على شكل دراسات تحليلية أو مونوغرافية عالجت بعض الجوانب من تاريخ المغرب في علاقته بإفريقيا جنوب الصحراء[١٧].

وعلى الرغم من هذه المحاولات الجادة يجوز القول، أن الخطاب المغربي المهتم بهذه العلاقات لازال لم يحصل بعد على التحرر من التبعية للكتابات الأجنبية التي كانت سباقة لهذه المواضيع والتي أطرتها حسب تصوراتها ومنطلقاتها. خلاصة القول إذن، أنه على الرغم من التنوع الكبير للكتابات التي

تناولت مجالات التواصل المختلفة بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء عبر العصور، فإنه لازالت العديد من جوانب هذا التواصل لم تحض بالاهتمام الكافي من طرف الباحثين حتى تعطى لهذه العلاقات المكانة اللائقة بها والمعبرة على مدى عراقتها وكثافتها.

دواعي اختيار الموضوع

إذا كانت دواعي البحث الخاصة بعملي السابق الذي تقدمت به للحصول على (د.د.ع.م) بوحدة التكوين والبحث "المغرب والعلاقات الدولية شمال-جنوب" والذي انكب أساسًا على تفكيك "ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية" تستوجب بالأساس المقاربة التاريخية، إذ عملت على عرض الإطار التاريخي لوضعية القارة السمراء نتيجة الاستعمار الأوربي وما ترتب عن ذلك من اتخاذ رؤساء الدول الإفريقية من قرارات حاسمة ومصيرية أخرجت للنور ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية، فإن الرغبة في تعميق معرفتي بكل ما يتعلق بالعلاقات المغربية الإفريقية سياسيا حفزني على اختيار البحث في موضوع: "سياسة المغرب الإفريقية: حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات الاستعمار الإسباني خلال القرن الخامس عشر الميلادي".

وعليه جاء اختياري لهذا الموضوع للاعتبارات التالية:

١. أن موضوع: "ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية بين التنظير والتطبيق: دراسة تاريخية" الذي اشتغلت عليه للحصول على د.د.ع.م، فتح لي مجالاً أكاديميًا خصبًا يتناول أكبر القضايا الإفريقية التي طرحت على هذه المنظمة خاصة منها قضية الوحدة الترابية للمغرب ومما زاد من شحذ فضولي العلمي حدث انسحاب المغرب من المؤتمر الإفريقي سنة ١٩٨٤، رغم البعد الإفريقي القوي في السياسة المغربية والمترتبة عن تاريخ مشترك ومن ثم بات تأصيل هذا البعد يستأثر بكل اهتمامي.

٢. أن استحضاري للإرث التاريخي المشترك بين المغرب والقارة السمراء بشكل قوي منذ العصر الوسيط (غرب إفريقيا) شحذ حماسي لتأكيد هذا الأمر بالاعتماد على وقائع تؤكدها الجغرافيا ويثمنها التاريخ.

٣. أن المغرب الذي ارتبط عبر الصحراء ببلدان إفريقيا السمراء مدعو الآن إلى إعادة التفكير الجدي في إعادة استغلال طرق قوافله التجارية بأشكال مختلفة، مستحضرًا اعتبارات الوسائل التقنية العصرية والظرفيات السوسيو-اقتصادية والسياسية الجديدة بالقارة السمراء وباقي جهات العالم.

تحديد الموضوع:

(الحقبة المدروسة والإشكالية)

يبدو أن اختيار موضوع البحث من الأمور الهامة والحاسمة في الكتابة التاريخية، لذلك يتطلب تحديده بدقة مع كثير من التريث والتبصر، وبمجرد الاستقرار على موضوع معين يكون الباحث قد خطا خطوة هامة في بحثه التاريخي.

واختياري البحث في إشكالية "**المغرب وإفريقيا: حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات الاستعمار الإسباني**" فرض عليّ المزيد من التحديد، لأنه من خلال هذه الإشكالية الكبرى يظهر تداخل العنصر الاقتصادي والجغرافي والاجتماعي ضمن بوتقة واسعة ألا وهي الإطار السياسي، ذلك أن هذا الإطار هو العنصر الرابط بين كل هذه المجالات، بل فرض عليّ تحديد الإطار الزمني الذي ستسلط أطروحتي عليه الضوء والتي تتناول بالبحث الاستعمار الإسباني للمجال الصحراوي. فإذا كانت جل الكتابات تعتبر سنة ١٨٤٤م الانطلاقة الأولى لذلك فاللبنات الأولى لهذه النزعة الاستعمارية إنما تعود إلى قرون سابقة يكون القرن الخامس عشر الميلادي وعاؤها، وعليه فقد وجهت بحثي إلى هذه المحطة الزمنية مركزًا على إيضاح ملامح هذا التاريخ المشترك خلال العصر الوسيط الذي يمثل العصر الذهبي له.

وعلى هذا الأساس تتمحور الإشكالية الكبرى لهذه الدراسة حول تساؤل كبير يهم معرفة تموجات العلاقات السياسية بين دول المغرب وممالك السودان الغربي خلال العصرين الوسيط والحديث وأهم العوامل المتحكمة فيها تتفرع عنها مجموعة من الأسئلة:

- ماهي الامتدادات الجغرافية لدول المغرب الوسيط خاصة في اتجاه الجنوب؟
- كيف شكل المجال الصحراوي الخيط الرابط بين دول المغرب الوسيط وممالك السودان الغربي؟
- لماذا اهتمت إسبانيا باكرًا بالجنوب المغربي في إطار التنافس على المجال الإفريقي؟
- ما هي الآليات التي لجأت إليها لتوظيف الحزام الجنوبي المغربي في هذا المخطط التوسعي؟
- ما السر في تحول المجال الصحراوي من عنصر ربط هام بين المغرب وممالك السودان الغربي إلى عنصر توتر في هذه العلاقات ما بعد فترة الاستقلالات؟

منهجية البحث

لقد فرضت علينا إشكالية الدراسة وإطارها الزمني أن يكون موردنا العلمي الأساسي هو المصادر الوسيطية بمختلف تشعباتها التاريخية منها والجغرافية والفقهية علمًا أن المعلومات متناثرة بها، الأمر الذي يتطلب الكثير من الجهد

لتحليل وتركيب هذه المعطيات للخروج بأجوبة كافية لتفسير العوامل المتحكمة في قضايا هذه الإشكالية المطروحة.

كما فرض علينا تناول الموضوع في تسلسله الزمني الوقوف على كل مرحلة من مراحل العصر الوسيط، حتى نتمكن من استجلاء خصائص ومواصفات كل مرحلة على حدة وإبراز العوامل المتحكمة فيها والخروج باستنتاجات توضح لنا الأسئلة الفرعية للإشكالية المحورية. هذا وقد فرضت علينا طبيعة الموضوع انتقاء نصوص تاريخية أو جغرافية لتدعيم معلوماتنا واجتهاداتنا في ظل غياب معطيات تاريخية تهم عقد اتفاقيات أو تبادل سفارات أو رسائل توضح لنا أسماء وتواريخ ومضامين هذه الاتفاقيات أو الرسائل.

وبناءً على ذلك، فإن معالجة الموضوع استوجبت منا:

قراءة النصوص المختلفة ومحاولة استنباط كل ما يعرف بالعلاقات السياسية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء. والمقارنة بين هذه النصوص المختلفة والخروج باستنتاجات تخدم طبيعة الموضوع الذي نحن بصدد دراسته. والوقوف على مختلف العوامل التاريخية الداخلية والخارجية لتفسير العلاقات السياسية خلال هذه الفترة. والوقوف عند المتغيرات الدولية للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وبوادر ظهور الإمبريالية الغربية مع مطلع القرن الخامس عشر الميلادي.

المادة المصدرية والمرجعية

بما أن الإطار الزمني للإشكالية المدروسة كان الموجه الرئيس لاعتماد مادة مصدرية ومرجعية تعود بالخصوص إلى العصر الوسيط مع انفتاح على فترات قريبة أو بعيدة عن الفترة المدروسة، كان همنا الأول هو رصد الإطار المصدري لدراسة هذا الجانب (تاريخ العلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي خلال العصر الوسيط)، ثم الإكراهات التي خلفها الاستعمار الإسباني والبرتغالي والتشويش على هذه العلاقات، علما أن الفترة الوسيطية تتميز بغنى المادة المصدرية التي يمكن حصرها في أعمال المؤلفين المرتبين زمنيا على الشكل الآتي:

- القرن الثاني والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين، فلا محيد عما كتبه كل من ابن عبد الحكم وابن خرداذبة واليعقوبي والبلاذري.
- القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، نجد كل من ابن الصغير والإصطخري وابن حوقل ....
- القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، نجد البكري.
- القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، نجد كل من الشريف الإدريسي وأبي حامد الغرناطي.
- القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، نجد كل من كتاب الاستبصار لمؤلف مجهول وابن عذاري المراكشي وياقوت الحموي.
- أما القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فيبدو أن المادة المصدرية أكثر غزارة مقارنة مع باقي الفترات المتقدمة من العصر الوسيط، حيث نجد كل من ابن أبي زرع الفاسي وأبي الفدا والعمري وابن بطوطة وابن الخطيب وابن خلدون والقلقشندي والحميري، ليأتي الوزان في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

أما المصادر الغربية والأبحاث الحديثة فتبدو كثيرة ومتنوعة تكاد لا تحصى تتناول مواضيع مختلفة ذكرنا بعضها سابقًا مثل (Jaque Meunié) جاك مونيي، و(Joseph Cuoq) جوزيف كيوك، وروزينبيرجي (Resenberger)، ورايموند موني (Raymond Mauny)، وبازيل دافيدسن (Basil Davidson)، والتي شكلت قيمة مضافة للأبحاث التاريخية والجغرافية المهتمة ببلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء. فقد ساهمت في إغناء وتفسير العديد من المعطيات التاريخية المصدرية كما ساهمت بشكل أو بآخر في تتبع تاريخ العلاقات السياسية بين المغرب وبلاد السودان الغربي، ناهيك عن مساهمتها في التعريف بالعديد من المجالات الجغرافية والمواقع الأركيولوجية ببلاد المغرب والسودان الغربي.

الصعوبات

من البديهي أن تعترض أي باحث في أي موضوع كان نوعه أو طبيعته صعوبات معينة قد تتعلق بطبيعة الموضوع نفسه أو بأدوات التناول، ومن جملة الصعوبات التي واجهت عملنا نذكر:

- أن المعطيات التاريخية المرتبطة بموضوع العلاقات السياسية خلال العصر الوسيط غير واضحة في المصادر التي اعتمدنا عليها مما فرض علينا البحث عنها بين ثنايا المعلومات المقدمة، ثم تحليلها وتفسيرها وتركيبها في قالب قابل للدراسة والفهم.
- الاختلاف والتناقض في الكثير من المعطيات التاريخية المتعلقة بالسنوات أو أسماء الأماكن أو الأشخاص مما فرض علينا بدل جهد كبير من أجل التوفيق بينها وترجيح الصحيح من الخطأ.
- تركيز الدراسات الحديثة التي تناولت موضوع العلاقات بين الطرفين على جوانب مختلفة اقتصادية، اجتماعية، ثقافية ودينية دون تركيزها على العلاقات السياسية باستثناء بعض الدراسات التي أشارت بشكل عابر إلى هذه العلاقات (أحمد الشكري ، آدام باكوناري ...).
- تركيز جل الدراسات الحديثة على العلاقات السياسية بين الطرفين في الفترة الحديثة والمعاصرة.
- شح إن لم نقل انعدام المعلومات المتعلقة بظروف وحيثيات وصول الإسبانيين إلى الجنوب المغربي، والآثار المترتبة عن ذلك.

- إشارة بعض الدراسات الحديثة للوصول الإسباني إلى السواحل الجنوبية الغربية من المغرب منذ القرن الخامس عشر الميلادي دون الإشارة إلى مصدر المعلومة.

كل هذه الصعوبات وغيرها لم تثن من عزمنا لسبر أغوار هذا الموضوع حتى نتمكن من ربط ماضينا الإفريقي بحاضرنا واستشراف مستقبل علاقات بلادنا بمجاله الإفريقي، ولم يتأت لنا ذلك إلا بفضل المجهودات الكبيرة المبذولة من طرف أستاذتنا المشرفة الدكتورة: ماجدة كريمي، التي لم تبخل علينا بتوجيهاتها السديدة وبنظرتها العلمية الدقيقة، ومن أجل ذلك اعتمدنا تقسيم الموضوع إلى ثلاث محاور كبرى أساسية.

تصميم الموضوع

لقد أسفر العمل المتواصل في البحث إلى تقسيم الموضوع إلى ثلاث أقسام كبرى تندرج تحتها فصول ومباحث، إضافة إلى مدخل تمهيدي وخاتمة عامة.

الباب الأول: الوقوف عند مفاهيم تشكل مفاتيح القضية الإشكالية (سياسة المغرب الإفريقية)، وقد ركزت فيه على إبراز ملامح المجالات الجغرافية المؤسسة للعلاقات السياسية:

- المفهوم السياسي والجغرافي للمغرب وبلاد السودان الغربي خلال العصرين الوسيط والحديث حتى نتمكن من ضبط المجال وامتداداته ورفع الالتباس حول الامتداد الجغرافي للمغرب خاصة في اتجاه الجنوب.
- التعريف بالمجال الصحراوي سياسيًا وبشريًا باعتباره صلة الوصل بين الكيانين، والذي يحتضن كنه إن لم نقل سر هذا التوجه المغربي صوب إفريقيا الغربية، كما يشكل الخيط الرفيع لفهم سياسة المغرب الإفريقية في الماضي بل وفي الحاضر خاصة بعد استئثار الاستعمار الإسباني بهذه البقاع، وعليه فقد شكل هذا المجال الطبيعي جزءًا هامًا من بحث الأطروحة.
- مفهوم السياسة الخارجية حتى نتمكن من الوقوف على العوامل المختلفة سواء منها الداخلية أو الخارجية التي تحكمت بشكل مباشر أو غير مباشر في العلاقات السياسية بين الطرفين خلال العصر الوسيط والحديث.

الباب الثاني: الوقوف على أحداث تاريخية تؤصل للحضور المغربي بإفريقيا الغربية على المستوى السياسي، وذلك منذ الفتح العربي الإسلامي للغرب الإسلامي ودور المغرب في نشر الديانة الإسلامية بالسودان الغربي ابتداء من الأدارسة ومرورًا بالمرابطين ثم الموحدين فالمرينيين في قالب تبادلي تجاري وكذا علاقات ثقافية وسياسية ليستمر الأمر حتى على عهد المنصور السعدي.

الباب الثالث: وقد خصصناه لأوضاع المغرب الداخلية ومساهمتها في تطلع الإمبريالية الغربية للسيطرة على السواحل الغربية الجنوبية، لدوافع سياسية واقتصادية ارتبطت بشكل رئيس بالتحولات التي عرفتها أوربا مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي، والتي دشنتها بحركة الاكتشافات الجغرافية والوصول إلى أقصى الجنوب الإفريقي وبالتالي التأثير على مسار العلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي عند نهاية العصر الوسيط.

الخلاصات

من بين أبرز الخلاصات التي توصلنا إليها من خلال هذا العمل هي:

- إن تطور وازدهار العلاقات المغربية على الساحة الإفريقية خاصة خلال العصر الوسيط باعتباره العصر الذهبي لعلاقات المغرب مع عمقه الإفريقي، والفترة الحديثة باعتبارها مرحلة الأزمة السياسية، تحكمت بشكل كبير في النهج السياسي للمغرب اتجاه إفريقيا بعد تخلصها من نير الاستعمار.

- إن تاريخ المغرب فرع من فروع تاريخ القارة الإفريقية العتيق، بل الفرع الأكثر فعالية في أحداثها خلال الفترة المدروسة، فنظرًا للسبق التاريخي للمغرب أصبح مصدرًا ومعبرًا للعديد من المقومات الحضارية نحو الجنوب. فعبر المغرب تسرب الإسلام وانتشر انتشارًا واسعًا بالسودان الغربي عن طريق التجارة والتجار والعلماء والفقهاء والهجرات البشرية، وهو المشروع الذي بدأ مع الفتح الإسلامي للشمال الإفريقي وأتمته كل من دولتي الأدارسة والمرابطين حتى أضحى الإسلام الدين الرسمي لعدد كبير من الفئات الاجتماعية بمختلف مستوياتها داخل السودان الغربي، كما أصبح المذهب السني المالكي أكثر المذاهب شيوعًا بين شعوب السودان الغربي. ولم ينحصر مستوى التأثير على العنصر البشري والروحي فحسب، بل مست هذه التأثيرات مختلف أوجه الحياة المادية والفكرية من لغة عربية وطرق للتدريس وأشكال التعامل والزي والجانب المعماري والعديد من عادات وتقاليد شعوب السودان الغربي.

- إن التأثير الكبير للمغرب وفرض حضوره السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي في السودان الغربي، لم يتأت إلا من خلال امتداده الجغرافي الكبير في الجنوب، فمن خلال استعراضنا لمفهوم المغرب الجغرافي والسياسي خلصنا إلى أن التأثير المغربي نابع من امتداده السياسي والجغرافي الكبيرين في الضفة الجنوبية للصحراء، واستغلاله أحد العناصر الأساسية الفاعلة في التاريخ البشري، وهو العنصر الطبيعي المتمثل في الصحراء بمكوناتها الطبيعية والبشرية، أسهم بشكل كبير في إخصاب العلاقات بين الشمال والجنوب على جميع المستويات.

- إن الخيط الناظم بين جل الكيانات السياسية بالمغرب خلال العصرين الوسيط والحديث، ارتكانها إلى مبدأ أساسي في علاقاتها الدولية، وهو استكمال مشروع الفتح الإسلامي، أي تمديد رقعة الإسلام بالقارة السمراء خاصة بالغرب الإفريقي. وقد اختلف هذا الهدف من حيث الأولوية بالنسبة للدول المغربية، فهناك من الدول من رفعت شعار "راية الجهاد" أولاً،

ثم بعد ذلك القيام بعملية التوحيد ثانيًا، والعكس بالنسبة لبعض الدول الأخرى التي ركزت على عملية التوحيد أولاً ثم بعد ذلك القيام بعملية الجهاد.

وقد انتهت هذه الدراسة بطرح **بعض التساؤلات ستظل مفتوحة إلى حين الإجابة عليها مستقبلاً**: ألا يمكن للمغرب أن يستغل هذا الإرث التاريخي لتطوير علاقاته مع دول إفريقيا جنوب الصحراء؟ ألا يتوفر المغرب على إمكانيات اقتصادية واجتماعية وثقافية يمكن استغلالها للرفع من مستوى الشراكة والتعاون مع الدول الإفريقية؟ أما حان الوقت للمغرب أن يسخر كل هذا وذاك لربح قضاياه الوطنية في مقدمتها قضية الوحدة الترابية؟

الهوامش:

(١) جرمان عياش، **دراسات في تاريخ المغرب**، ط١، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ١٩٨٦، ص: ١١-٣٢.

(2) Cornevin (Robert et Marianne), Histoire de L'Afrique des origines à la 2ème guerre mondiale, Payot, Paris, 1964. / B.DAVIDSON, L'Afrique ancienne I, Maspero, Paris-V1973. /De Lachapelle (F), Esquisse d'une histoire du Sahara occidental, Hespéris, tome XI, Librairie Larose, Paris1930.

(3) Joseph Cuoq, Histoire de L'islamisation de l'Afrique de l'ouest des origines à la fin du XVIe siècle, Paris, 1984.

(4) Raymond Mauny, Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen âge, Dakar 1961.

(5) Vincent Monteil, L'islam noir une religion à la conquête de l'Afrique, collection Esprit/Seuil.

(6) Jaque Meunié, Le Maroc Saharien des origines à 1670, Paris 1982.

(7) Michel ABitbol, Tombouctou et les arma de la conquête marocaine du SOUDAN en 1591 à l'hégémonie de l'empire PEULH du MACINA en 1833.

(8) Zakari Dramani Issifou, L'Afrique noire dans les relations internationales au XVIe siècle, analyse de la crise entre le Maroc et le Sonrhaï .éditions Karthala, Paris1982.

(9) Adam Ba Konaré, Les relations politiques et culturelles entre le Maroc et le Mali à travers les âges, publications de l'institut des études africaines-Rabat, 1991.

(10) Ki-Zerbo, Histoire de L'Afrique noire, Hatier, Paris, 1970.

(11) S.M.Cissoco, Histoire de L'Afrique Occidentale, Paris, Présence Africaine, 1966.

(12) Félix Iroko, La politique marocaine au soudan XVI-XVII S, Sorbonne, Paris I, 1971.

(١٣) ونشير هنا إلى بعض الدراسات: -أحمد التوفيق، **العلاقات بين المغرب وإفريقيا من خلال كتاب تاريخ الفتاش وتاريخ السودان**، م.ج.م. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، منشورات عكاظ، الرباط ١٩٨٧. -ماجدة كريمي، **العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المريني**، د.د.ع.م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ١٩٨٨-١٩٨٩. -ماجدة كريمي، **آثار التجارة الصحراوية على المغرب: سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا من ق٥هـ/١١م إلى أواخر ق٨هـ/١٤م**. دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة ١٩٩٥.

*- Abdelaziz El Alaoui : Le Maghreb et le commerce transsaharien (milieu du XIème-milieu du XIVème s).contribution à l'histoire économique sociale et politique du Maroc Médiéval. Thèse eu vue du doctorat de 3ème cycle, Bordeaux, 1983, p : 251.

(١٤) دراسة خالد أوشن حول "**النشاط الاقتصادي في النيجر الأعلى، ٩٩٩-٦٢٨هـ/١٥٩١-١٢٣٠م**"، الرباط ٢٠٠١.- خالد الشكراوي، "**الدين والسلطة في إفريقيا الغربية مساهمة في دراسة بعض البنيات السياسية بالسودان الغربي ٦٢٨-١٠٠٠هـ/١٢٣٠-١٥٩١م**"، الرباط ١٩٩١.- سالم المعلول، **مملكة كانم-برنو**، الدار البيضاء ٢٠٠٠.

(١٥) ونقصد بذلك معهد الدراسات الإفريقية الذي تم تأسيسه سنة ١٩٨٦ بالرباط، إضافة إلى مواد تخص الدراسات الإفريقية الذي تم إحداثه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سنة ١٩٨٦/١٩٨٧، وكذلك بكلية الآداب ظهر المهراز بفاس تدرس ببعض الشعب على رأسها شعبة التاريخ وكذلك شعبة الآداب، أدب عربي/ فرنسي/ إنجليزي.

(١٦) نشير هنا إلى الدراسات الهامة لكل من: الطالب أبو عبد الله، **فتح الشكور في معرفة أعيان التكرور**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،١٩٨١.- فاطمة الحراق، **معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط ٢٠٠٠.- بهيجة الشاذلي، **إنفاق الميسور لمحمد بيلو**/ تحقيق بهيجة الشاذلي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط ١٩٩٦. بهيجة الشاذلي، **الفكر السياسي عند عثمان بن فودي**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق الدار البيضاء ٢٠٠٠-٢٠٠١.

(١٧) ونشير هنا إلى دراسة كل من الحسين العماري، **المغرب والتجارة العابرة للصحراء من ق١٥م إلى ق١٨م، إسهام في دراسة تاريخ المغرب وعلاقته مع السودان الغربي في العصر الحديث**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ٢٠٠٣.- أحمد الشكري، **الإسلام والمجتمع السوداني، إمبراطورية مالي ٦٢٨-٨٣٤هـ/١٢٣٠-١٤٣٠م**. ك. أ. ع. إ. الرباط ١٩٩٠ - ١٩٩١.- محمد الغربي، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٢، ص: ١٤.